دور المعنى في التوفيق بين النصوص النحوية

د. رمضان صميدة القحواش
قسم اللغة العربية- كلية الآداب
جامعة السابع من أبريل

توطئة:

لقد قام النحاة العرب بوضع علم قواعد النحو التي تعد وصفا لسلوك معين في تركيب اللغة، فكل جماعة لغوية لديها الرغبة الجارفة في وجود سلطة مختصة يتخذها أعضاء الجماعة اللغوية قبلتهم وحكمهم قي كل ما يعرض لهم من مشاكل لغوية.

وهذه الرغبة هي رغبة السواد الأعظم في وجود قواعد لغوية محددة ومختصرة, وعليه فقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب بجهد لايعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ، وتراكيب الجمل ومعاني المفردات على صورة شاملة؛ حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد، ولكن العلماء قد اشترطوا في القاعدة أن تتسم بالشمول، أي أن تكون عامة لا كلية، ومعنى ذلك أن القاعدة لابد أن تنطبق على أغلب مفرداتها وليس من الضروري أن تشملها جميعا، فلا يشذ عنها شيء.

ولكن عند طرد هذه القواعد وجد النحاة أنفسهم أمام بعض النصوص المسموعة الفصيحة التي لايمكن ردها أو إنكارها، ولكنها تشذ عن قواعد

النحاة؛ أي: لم تطبق عليها القواعد، الأمر الذي اضطر النحاة إلى اللجوء إلى قواعد بديلة أو اجتهادات فرعية لحل هذا الأمر، ومحاولة منهم للتوفيق بين القواعد وبعض النصوص، وسوف يعرض في هذا البحث بعض الحلول التي تعتمد على المعنى ومنها: الحمل على المعنى، التضمين، التوهم، التقارض.

أولا- الحمل على المعنى:

الحمل على المعنى من الظواهر المشهورة في اللغة العربية والدرس النحوي, ومحورها المعنى؛ لذا سميت بهذا الاسم، وتوضح هذه الظاهرة مدى اهتمام العرب بالمعنى ولا يزال" التنقل من معنى إلى معنى كثيرا في كلامهم"[(1)], ومن المشهور أن الألفاظ وضعت للدلالة على المعاني، ويقصد بلفظ (الحمل)[(2)] الذهاب إليه أو معه وترجيح كفته, فالحمل على المعنى ترجيح لكفة المعنى ولكن الأصل والأشهر هو أن الحمل على اللفظ والمعنى أولى من الحمل على المعنى دون اللفظ، ولكن قد يعن لنا في التراكيب بعض العوارض اللغوية كالحذف أو الإضمار أو الاعتراض أو نحو ذلك مما يؤدي إلى غموض المعنى أو عدم موافقته التركيب للقواعد النحوية, فنصبح أمام مفترق طرق: اللفظ، المعنى، القاعدة النحوية؛ ولكن سبيل الخروج من ذلك الأمر هو أن نؤكد أن "حمل الكلام على ما فيه فائدة أشبه بالحكمة من حمله على ما ليس فيه فائدة"[(3)].

فالفائدة وتمام المعنى ووضوحه هو الهدف الأساسي والأسمى في الدرس النحوي واللغوي، فأساس الدراسات اللغوية كما نعلم هو المعنى وبلوغه وتجويده؛ لذلك نجد أن العرب " إذا حملت على المعنى لم تكد تراجع اللفظ"[(4)] ويجب علينا ونحن في هذا المقام أن نأخذ فكرة يسيرة عن الحمل على المعنى ونمثل لبعض شواهده على النحو التالي:

المقصود بالحمل على المعنى في عرف النحاة هو" أن يعطى حكم الشيء ما أشبهه في معناه أو في لفظه أو فيهما"[(5)] أو هو "حمل لفظ على معنى

آخر، أو تركيب على تركيب آخر ؛لشبه بين اللفظين أو التركيبين في المعنى المجازي، فيأخذان حكمهما النحوي مع ضرورة وجود قرينة لفظية أو معنوية تدل على ملاحظة اللفظ أو التركيب الآخرين، ويؤمن اللبس معهما"[6].

والحمل على المعنى كما نعرف مشهور جدا لدى العرب " فهو أكثر في كلامهم من أن يحصى, وفي هذا الشأن يقول ابن جني :" رأيت غلبة المعنى للفظ وكون اللفظ خادما للمعنى مشيدا به، وإنما جئ به له ومن أجله، وأما غير هذه الطريقة من الحمل على المعنى فأمر مستقر ومذهب غير مستكره"[7].

وتكمن أهمية الحمل على المعنى أيضا في أنه " وسيلة من وسائل التأويل النحوي لرأب الصدع بين القواعد النحوية والنصوص اللغوية، وفي هذه الوسيلة يقوم العنصر الدلالي (المعنى) بعلاج كثير من المخالفات اللفظية المنطوقة"[8].

والشواهد على الحمل على المعنى كثيرة ؛ من ذلك قوله تعالى: [لَوْلا أَخرْتَنِي إِلَى أَجلٍ قَرِيبٍ فَأَصدقَ وَأَكُن مِن الصالِحِين][9] وذلك بجزم (أكن) حملا على المعنى، والمعنى:إن أخرتني أكن[10]، ومنه أيضا قوله تعالى: [وما كان لِبشَرٍ أَن يُكلمهُ اللهُ إِلا وحْياً أَوْ مِن وراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رسُولاً][11] فقوله تعالى: (أو يرسل) معطوفا على (وحيا) على المعنى؛ والتقدير : إلا أن يوحي ..أو يرسل رسولا[12].

ومن شواهد الحمل على المعنى أيضا قراءة يحيى والأعمش لقوله تعالى: [ذُو القُوةِ المتِينُ][13] حيث ذكر ابن جني في أحد رأييه: أن (المتين) وصف للقوة, وجاء النعت (المتين) مذكرا مع أن المنعوت (القوة) مؤنثة؛ وذلك لان (القوة) قد حملت على معنى الحبل[14].

ومن شواهد ذلك قول الأعشى:

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما ... يضم إلى كشحيه كفا مخضبا

فقال (مخضبا), والموصوف مؤنث (كف)؛ لان الكف حمل على معنى (العضو) أو(الساعد)[15] ومنه قوله تعالى: [**انتهوا خيرا لكم**][16] قال الخليـل: "كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت :انته وادخل فيما هو خير لك، فنصبته لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له :انته، أنك تحمله على أمر آخر, فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال له: انته، فصار بدلا من قوله: ائت خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك"[17].

وقد تناول سيبويه الآية السابقة عند دراسته لما ينتصب على إضـمار الفعل المتروك إظهاره، ومن الملاحظ مدى الترابط والتداخل بين الحمل علـى المعنى والحذف أو الإضمار فالذي دفع النحاة إلى الحمل علـى المعنـى هـو محاولة التوفيق بين الحذف والقاعدة النحوية.

ويرى سيبويه وغيره أنه : يجوز الحمل على المعنى مع التمام في الكلام، كما يجوز مع النقصان في الشعر ضرورة[18]، ومن شواهد الحمل على المعنى أيضا قول عبدا الزعيبي:

يا ليـ ـت زوجـك قـد غدا متقلـ ـدا سيفـ ـا ورمحـ ـا

والتقدير: وحاملا رمحا، فهذا محمول على معنـى الأول لا لفظـه[19]

ومنه قول عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

وجدنـا الصالحين لهم جزاء وجنـات وعينـ ـا سلسبيـلا

وذلك لان الوجدان مشتمل في المعنى على الجزاء؛ فحمل الآخر على المعنى[20].

وبعد فالشواهد على الحمل على المعنى كثيرة جدا، وأكثر من أن تحـصى كما أجبرنا النحاة، وهى مبثوثة في ثنايا كتب النحو وغيرها، وما يهمن هنا هو

أن العلاقة العضوية بين الحمل على المعنى وبعض التراكيب نابعة من الـدور الذي يقوم به المعنى للتوفيق بين النصوص (التراكيب) والقواعد النحوية.

ثانيا: التضمين:

التضمين من الظواهر اللغوية المشهورة، التي يلعب فيها المعنى دورا بارزا، فباب التضمين النحوي ما هو إلا دراسة للمعنى " لان الاعتمـاد علـى اللفظ المنطوق فحسب لايكفي في تفسير الأسلوب **؛**لان فيه كسرا لقانون اللغة، فقد يتعدى اللازم أو يلزم المتعدي، ولكن الذي يفسر كل هذه العلاقات النحويـة هو النظر في المعنى، فوضوح المعنى هو الذي أباح كل هذه المخالفات"[21]

وعلى ما تقدم يجب أن نأخذ فكرة يسيرة عن هذا الباب الواسع اللطيف الظريف كما يرى السيوطي وغيره[22].

التضمين لغة: هو جعل الشيء في باطن شيء آخر، وإيداعه إياه يقـال " ضمن فلان ماله خزانته، فتضمنته هي، فالمال مضمن، والخزانة مضمن فيها، وهي أيضا متضمنة والمال متضمن[23].

أما التضمين اصطلاحا فهـو "أن يتوسع في استعمال لفظ توسعا يجعله مؤديا معنى لفظ آخر مناسب له، فيعطي حكم الثاني في التعـدي واللـزوم"[24]

وهو أيضا "اشراب لفظ معنى لفظ آخر، وإعطاؤه حكمه لتصير الكلمة تـؤدي معنى الكلمتين"[25].

ومن الواضح أن الغرض من التضمين هو "إعطـاء اللفـظ مجمـوع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد"[26].

والشواهد على ظاهرة التضمين كثيرة ؛ ومنها على سـبيل المثـال لا الحصر قوله تعالى: [أُحِل لَكُمْ لَيْلَةَ الصيامِ الرفَثُ إِلَى نِسائِكُمْ][27] "فأنت لا تقول (رفثت إلى المرأة) ولكن تقول (رفثت بها أو معها) لكنه لما كان (الرفث) هنـا

في معنى(الإفضاء) وكنت تعدي (أفضيت) ب(إلى) كقولك : أفضيت إلى المرأة، جئت بـ(إلى) مع (الرفث) إيذانا وإشعارا أنه بمعناه"[28].

ومنه قوله تعالى: [ما نَنْسخْ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ منْها أَوْ مِثْلِها][29] فأن (ما) تضمن معنى (إن) الشرطية، ولذلك جزم الفعل (ننسخ) والفعل (نأت)[30].

ومن شواهد التضمين أيضا قوله تعالى: [ومن يرْغَبُ عن ملةِ إِبْراهِيم إِلا من سفِه نَفْسهُ][31] فالفعل (سفه) لازم تضمن معنى الفعل (أهلك) المتعدي، ومنه أيضا قوله تعالى: [حقِيقٌ علَى أَن لا أَقُولَ علَى اللهِ إِلا الحق][32] فقد تضمنت كلمة (حقيق) معنى (حريص)؛ ليفيد أنه محقوق يقول الحق، وحريص عليه . ومن الملاحظ الدور المهم والرئيسي الذي يلعبه المعنى في ظاهرة التضمين، فعند وجود عدم التوافق بين بعض الألفاظ والتراكيب من جهة والقواعد النحوية من جهة أخرى، يقوم المعنى بدور توفيقي بينهما عندما يتضمن اللفظ معنى لفظ آخر ينسجم مع القاعدة النحوية.

ثالثاً- التوهم:

من الظواهر التي لعب المعنى فيها دورا محوريا بارزا ؛ فالتوهم نتاج البحث عن المعنى المناسب والتوفيق بين النصوص والقواعد النحوية, والحق أن التوهم ظاهرة نحوية قال بها النحاة ونسبوها للعرب، وقد قامت هذه الظاهرة بدورها المنوط بها في معالجة ما قد ينشب من خلافات بين بعض المسموعات أو النصوص الفصيحة والقواعد النحوية، ولكي يتضح لنا الدور المهم الذي يلعبه المعنى في ظاهرة التوهم يجب علينا أن نأخذ فكرة ولو يسيرة عنها وذلك على النحو الآتي:

التوهم لغة:

جاء في لسان العرب: "الوهم خطرات القلب والجمع أوهام ؛ وتـوهم الشيء تخيله وتمثله كان ذلك في الوجود أم لم يكن، وقال : توهمـت الـشيء وتفرسته وتوهمته وتبنيته بمعنى واحد"[(33)].

وعليه فالمعنى اللغوي للتوهم هو تصور أمور وتخيلها دون أن يكـون لها وجود على المستوى الواقعي أو الملموس، هذا التوهم وسيلة تتصل بالعقـل والفكر، فانه قد يوصل إلى واقع وحقيقة، وقد يسفر عن غلط وسهو.

أما التوهم في اصطلاح النحاة فهو "تفسير تخيّلي يضطر إليه النحـاة، وذلك عن طريق الاستعانة بالمعنى في محاولة للتوفيق وتحقيق الانسجام بين ما قد يظن من خطأ في إعراب بعض التراكيب العربية الفصيحة التي لاريب في صحتها وبين القواعد النحوية ومحاولة تفسير مجيئها على هذا النظم"[(34)].

فمن الملاحظ أن المعنى هو الذي يساعد النحاة فـي الوصـول إلـى المحذوف, أو هو الذي يكشف لهم عوار بعض التراكيب، وعن طريقه يصلون إلى التوفيق بين الإعراب وصحة التركيب ووضوح المعنى، فالمعنى هنا يبدأ به النحاة عملهم لينتهوا أليه أيضا، فالإعراب كما نعلم فرع المعنى، فـان تعـسر الإعراب جعلوا المعنى يوضحه.

وشواهد التوهم كثيرة حدا، ونذكر هنا بعض النماذج عليها من أجـل الوقوف على حقيقتها اللغوية ودور المعنى فيها، من ذلك قول زهير:

بدا لي أنّى لست مدرك ما مضى   ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

فقد لاحظ النحاة أن الشاعر قد خفض (سابق) على الرغم مـن أنهـا معطوفة على (مدرك) خبر ليس المنصوبة، فبحثوا عن سبب ذلـك الاخـتلاف فعندهم القاعدة تقول : إن المعطوف يتبع المعطوف غليه، فهداهم تفكيرهم إلـى

القول بالتوهم فقالوا : إن الشاعر قد توهم انه قال (لست بمدرك) ثـم عطـف عليها وقال: (ولاسابق) وذلك للتوفيق بين نطق البيت والقاعدة النحوية[35]

ومن شواهد التوهم أيضا قول الأحوص الرياحي:[36]

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب الأ بين غرابها

فقد ورد البيت بجر (ناعب) على توهم الباء في خبر ليس (بمصلحين),

ومن ذلك أيضا قول الشاعر:[37]

ما الحازم الشهم مقداما ولا بطل إن لم يكن للهوى بالحق غلابا

فقد جر (ولابطل) معطوفا على (مقداما) المنصوب.

ومن شواهد التوهم أيضا قول الأعشى ميمون:[38]

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل

فقول الشاعر (أوتنزلون) بالرفع معطوف على معنى (إن تركبوا) فهو من العطف على التوهم عند الخليل وسيبويه؛ لان معناه " لان تركبـوا فـذاك عادتنا أو تنزلون في معظم الحرب فنحن معروفون بذلك[39]

ومن شواهد التوهم أيضا قول الشاعر:[40]

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إن فعلت عظيم

فالفعل (تأتى) منصوب بأن المضمرة بعـد(واو المعيـة) والمـصدر المنسبك من (أن) والفعل المعطوف على مصدر متوهم من الكـلام الـسابق ؛ والتقدير: لايمكن منك نهى وإتيان[41]

وبعد.. فقد كان المعنى هو أساس عملية التوهم، فعليه ترتكـز واليـه تنتهي؛ لان أي باحث لغوي أو متحدث يستعين بما شاء من الوسائل من أجـل جلاء المعنى ووضوحه وكشف اللبس من أي تركيب يقابله وهذا هـو هـدف التوهم، وكما ذكرنا فان للمعنى علاقة وطيدة بالألفاظ فـإذا عجـزت الألفـاظ توهمنا المعنى؛ وان عجز المعنى اعتمدنا على الألفـاظ لتوضـيح المعـاني،

ويمتدح بعض العلماء منهج التوهم حيث يرون أن " أحسن من هذا كله أن يسلك بالعبارة طريق التخريج على التوهم، وهو غور من أغوار العربية يستلطفه العرفاء ولا يستضعفه إلا الضعفاء"[42].

رابعاً- التقارض:

من الظواهر اللغوية المعروفة التي مبناها على المعنى ويلعب فيها دورا محوريا بارزا ظاهرة التقارض، ويعد النحاة التقارض علاجا لما قد يعن من صدع بين التراكيب والقواعد النحوية، وذلك عن طريق الاستعانة بالمعنى[43].

وسوف نتحدث عن هذه الظاهرة اللغوية بشيء من التفصيل.

التقارض لغة:

يرى ابن فارس أن "القاف والراء والضاد أصل صحيح, وهو يدل على القطع، يقال: قرضت الشيء بالمقراض، والقرض: ما تعطيه للإنسان من مالك لتقضاه، وكأنه شيء قد قطعته من مالك"[44] ويرى صاحب اللسان أن "فلانا وفلانا يتقارضان الثناء؛ إذا أثنى كل واحد منهما على صاحبه ثناء كقرض المال، وتقارضا الشيء أو الأمر تبادلاه"[45] فمما سبق يدور المعنى اللغوي للتقارض حول تقارض الشيئين للمعاني؛ أي أن يتبادلاها.

أما التقارض اصطلاحا فهو "أن كل واحد منهما يستعير من الآخر حكما هو أخص به"[46] أو بعبارة أخرى هو أن يتبادل لفظان أهم صفاتهما، ويجري كل منهم مجرى الآخر عن طريق التضمين أو الحمل على المعنى، أو هو أن يجري أحد اللفظين مجرى الآخر في إعماله وإهماله .

وعلى ما تقدم نفهم أن المعنى هو محور ظاهرة التقارض، والشواهد على ذلك كثيرة منها: التقارض في بعض حروف الجر ؛ ومن ذلك قوله تعالى: [ولأُصلبنكُمْ فِي جُذُوعِ النخْل][47] أي على جذوع النخل[48] فجاءت (في) هنا

بمعنى (على) وفي قوله تعالى: [واتبعُوا ما تَتْلُو الشياطِينُ علَى مُلْكِ سُلَيْمان][49] أي : في ملك سليمان، أو في زمـن ملـك سـليمان, فهنـا جـاءت (علـى) بمعنى(في)[50]

من ذلك أيضا قوله تعالى: [ومن يبْخَلْ فَإنما يبْخَلُ عن نفْـسِهِ][51] أي على نفسه، وكذلك قوله تعالى: [وإذَا مروا بِهِمْ يتَغَامزُون][52] أي: عليهم، فالباء هنا وقعت بمعنى (على).

ومن التقارض أيضا ما ورد من أن (إلا) جاءت بمعنى (غير) كما في قوله تعالى: [لَوْ كان فِيهما آلِهةٌ إلا اللهُ لَفَسدتَا][53]، ولولا التقارض بـين (إلا) و(غير) لكان المعنى فاسدا وباطلا، فلو كانت (إلا) بمعناها لكان المعنى : لـو كان فيهما آلهة ليس من ضمنها الله لفسدتا، وهذا المعنى باطل ؛ إذ يوحي بأنهما لاتفسدان إذا كان الله من ضمن الآلهة ولم يخرج ولم يطـرح وهـذا واضـح البطلان، بخلاف ما لو كانت (إلا) اسما بمعنى (غير) نعتا للنكرة قبلهـا فـان المعنى يصح ويستقيم[54]

والشواهد على التقارض كثيرة يمكن تتبعها, وما يهمنا هنا أن المعنـى كان محور عملية التقارض بين الألفاظ فهم يتقارضون المعاني.

الهوامـــش:

1) الأنصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري 115/2، وينظر: الأصول لتمـام حـسان ص217.
2) المصدر السابق 510/2.
3) المصدر السابق 10/1.
4) الخصائص لابن جني 431/2.
5) مغني اللبيب لابن هشام 674/2.
6) الحمل على المعنى لأشرف مبروك, رسالة ماجستير دار العلوم القاهرة ص6.
7) الخصائص 237/1.

8) النحو والدلالة لمحمد حماسة عبد اللطيف ص155.
9) سورة المنافقون، الآية 10.
10) ينظر: الكتاب 1 /425، معاني القرآن للفراء3 /160.
11) سورة الشورى, الآية 51.
12) ينظر: معاني القرآن للفراء 313/3.
13) سورة الذاريات الآية 58 .
14) معاني القرآن للفراء 90/3 ، وينظر المحتسب لابن جني 289/2.
15) الإنصاف 2/ 776 وينظر : الأشباه والنظائر للسيوطي 101/3.
16) سورة النساء, الآية 171.
17) الكتاب لسيبويه 283/1.
18) المصدر نفسه 285/1.
19) الخصائص 431/2 وينظر: الكامل في اللغة والأدب للمبرد 234/3.
20) الكتاب: 1/ 288.
21) الاتساع في الدراسات النحوية، رسالة ماجستير دار العلوم جامعة القاهرة ص50.
22) الأشباه والنظائر 187/1, وينظر: مغني اللبيب لابن هشام 193/2.
23) لسان العرب لابن منظور مادة (ضمن).
24) مجلة مجمع اللغة العربية سنة 1934 العدد الأول ص 80.
25) مغني اللبيب 2/ 678 وينظر: حاشية الصبان 95/2.
26) الأشباه والنظائر 13/1.
27) سورة البقرة الآية 187.
28) الخصائص 308/2.
29) سورة البقرة الآية 106.
30) النحو الوافي لعباس حسن 565/2.
31) سورة البقرة الآية 130.
32) سورة الأعراف الآية 105.
33) لسان العرب مادة (وهم).
34) التوهم عند النحاة لعبدا أحمد جاد، ص30.

35) ينظر: الكتاب لسيبويه 83/1 والخصائص 353/3 والأصول لابن السراج 306/1.
36) مغني اللبيب 799/2.
37) الكتاب 429/1.
38) المصدر السابق 164/3.
39) المصدر السابق 53/1.
40) المصدر السابق 1 /34.
41) شرح المفصل للزمخشري 24/7.
42) التأويل النحوي في القرآن الكريم لعبد الفتاح الحموز رسالة دكتوراه دار العلوم القاهرة.
43) ينظر : ظاهرة التقارض في الدرس النحوي لعبدا احمد جاد.
44) مقاييس اللغة, مادة (قرض).
45) لسان العرب، مادة (قرض).
46) شرح المفصل 88/2.
47) سورة طه الآية 18.
48) ينظر الخصائص 2 /307.
49) سورة البقرة الآية 102.
50) أدب الكاتب لابن قتيبة ص 406.
51) سورة محمد الآية 38.
52) سورة المطففين الآية 30.
53) سورة الأنبياء الآية22.
54) الكتاب 331/2.